

الفلسفة واللغة

بمناسبة صدور الطبعة الخامسة للقاموس الفلسفي
للأستاذ لالاند

ترك الأستاذ أندريه لالاند ، عضو المجمع العلمي الفرنسي ، كرسى الفلسفة بجامعة فؤاد في مارس سنة ١٩٤٠ ، وبقى أثناء سنى المحنة بين فرنسا المحتلة وفرنسا غير المحتلة ، ثم استقر أخيراً في باريس مترقباً تحرر فرنسا . ومنذ رجوعه لفرنسا حتى اليوم ، وقد جاوز الثمانين ، اشتغل طول الوقت باعداد مقالات جديدة ، وإعادة طبع مكتبته وتنقيحها وزيادة فيها ، ونشر ما لم يتيسر له نشره من دراساته ومحاضراته .

ليس أستاذنا لالاند فيلسوفاً كاملان (Hamelin) صاحب مذهب تنتظم فيه الأفكار ، أو كبرجسون مخترع منهج فلسفي يُدرّس في ضوءه المشكلات . ولكنه كان ، وما زال ، خير معلمى الفلسفة . كان ، وما زال ، عقلاً محللاً ، يوجه تلامذته وأصدقائه الفلاسفة ، ويشجعهم على القيام بالدراسات المنطقية اللغوية ، يدعوهم ، رغم ما بينهم من اختلاف أوجه النظر ، الى التعارف والتداول والمناقشة . — وفق في مبدأ حياته الفكرية ، مع صديقه كزافيه ليون (Xavier Léon) ، الى تأسيس الجمعية الفلسفية الفرنسية . وليس أدلّ على توفيقه من التفاف ممثلى الفكر الفرنسي المعاصر حوله ، بل والفكر العالمى أيضاً ، لمناقشة أهم المشكلات العلمية العامة والفلسفية أثناء جلسات الجمعية ، ومن تدوين هذه المناقشات في مجلة (١)

(١) Bulletin de la Société Française de Philosophie.

تصدر تبعاً حتى اليوم منذ سنة ١٩٠١ . كما أن أظهر علامة على مجهود الأستاذ تخصيص أهم مناقشات الجمعية لدراسة عناصر اللغة الفلسفية الفرنسية ، والمقارنة بين مصطلحاتها على مر العصور : عمل الأستاذ لالاند على إعداد هذه المناقشات ، فبعد تعيين المصطلحات الأوروبية القديمة والحديثة المقابلة لكل كلمة فلسفية فرنسية ، يحرر الأستاذ بنفسه تعاريف الكلمة وما يلزم هذه التعاريف من الشروح ، مستعيراً من أعظم الفلاسفة والكتاب ، أفضل النصوص التي تمثل استعمال الكلمة . ثم يعرض نتائجه هذه على أعضاء الجمعية الفلسفية ، فيناقشونها ويدلون آراءهم بصدددها ، ثم يقرن الأستاذ هذا البحث التخصص لكل كلمة فلسفية ، بدراسة نقدية ، يجمع فيها بين مقارنة الاستعمالات المختلفة للكلمة ، واستخلاص نتائج المناقشة التي قامت بين الأعضاء وبينه بصدد المقال .

عمل جليل حقاً كرس له الأستاذ أوقاته الثمينة مدة عشرين عاماً ، وظهرت ثمرة في سنة ١٩٢٦ تحت عنوان « قاموس المصطلحات الفلسفية الفنية والنقدية » (١) في مجلدين . هذا العمل الذي صدرت طبعته الخامسة ، منذ بضعة شهور في مجلد واحد ، طبعة مزيدة ومنقحة ، هو ما نزمع التكلم عنه اليوم .

* * *

يقول مونتيني (Montaigne) في فصل من فصوله المتعة ان « أغلب خصوصياتنا تقوم على أغلاط لغوية » . — نعرف أن فرنسيس بيكون كان له رأي مماثل ، وإنه كان يعتبر تاريخ الفلسفة كله منذ العصور القديمة مسرحاً لمناقشات تافهة حول الكلمات .

وإن كان يكون مخطئاً في تقديره هذا ، ومتشيعاً لعصره في معاداة المدرسين ،

(1) *Vocabulaire Technique et Critique de Philosophie* (Presses Universitaires, de France 3e édition, Paris 1947).

إلا أنه وجه بعد مونتيني نظر الباحثين الى منزلة دراسة اللغة وأساليبها وكلماتها من الفكر الفلسفي . — ولسنا مبالغين ان قلنا بهذا الصدد أن الفلاسفة ، في نظر رجلين كسقراط وأفلاطون ، لم تكن إلا دراسة دقيقة لبعض كلمات يتداولها الناس في حديثهم ، وتدل على معان يحققها كل منهم في حياته طول الوقت ، تقصد كلمات مثل الفضيلة والعلم والشجاعة والعفاف والجمال والوجود وما الى ذلك . وإن لم تبلغ دراسة هذين الرجلين لمعاني الكلمات ، الى نتائج نهائية ، فهي وجهت على الأقل نظر الناس الى أمر هام : هو أننا نتفوه في أغلب الأحيان بكلمات لا ندرى معناها أو نحمل على معان متناقضة أو استخلص من تجارب لا تربط بينهما عوامل مشتركة .

اعتبرت الفلسفة القديمة إذن دراسة للغة عند اثنين من كبار ممثلها . وإن كان المجال لا يسمح لنا بتتبع هذا التأويل للفلسفة (١) أو بالتنويه عن كان يعارضه أشد المعارضة ، كديكارت وتلامذته من الديكارتيين ، الذين كانوا يبحثون عن الأشياء في ذاتها ، ويعملون على التأمل مباشرة مُثْلِها دون ستار الألفاظ ، إلا أن هذه الإشارة تجعلنا نفهم ، ولم اتخذت ثورة هيوم على الفلاسفة ، صورة بحث نقدي في معاني الكلمات الفلسفية . يتساءل هيوم: الى أي تجربة واقعية يصح أن نرجع هذه المعاني ؟ — وإن تبين أن هناك كلمات للفلاسفة لا تستند الى تجربة شعورية أو حسية ، أليس من واجبنا إقصاء هذه الكلمات ؟

لا ينبغي أستاذنا لالاند في قاموسه أو في سائر مؤلفاته إرجاع المعاني الفلسفية الى التجربة الحسية أو الشعورية ، ولكنه يقوم بصدد الألفاظ ، بمجهود عظيم لفهم أوجه استعمالها راجعا في ذلك الى تاريخ اللغة وتاريخ الفكر .

(١) راجع هنا كتب بريس باران القيمة وخاصة

Brice Parrain: *Les Fonctions du Langage*. (Paris. 1948).

وإن كنا لا نستطيع في دراستنا اليوم الأمام بالدواحي العديدة القيمة للقاموس فالتنا سنعمل على الأقل على الإشارة الى ما يرمى اليه من أغراض عامة ، وما يستخدمه من طرق دقيقة لتحديد معاني الكلمات ، ممثلين لهذه الطرق ببعض أمثلة من القاموس .

ينبئنا الأستاذ لالاند في مقدمة الطبعة الخامسة الى ما نجده عند بعض المفكرين وأشبه المفكرين ، من ألفاظ مُغَرَّية ، ألفاظ كالوجودية والتعالى والفكر المتعالى ، يتوهم السامع أن وراءها معاني عميقة . الوظيفة الأولى للقاموس الفلسفى هى تحرير العقل من وطأة الألفاظ ، ولا يتم هذا التحرير إلا بالبحث فى الألفاظ ذاتها وتحديد مختلف معانيها . — إنما يجدر بصاحب القاموس ، قبل أن يحدد المعانى الفلسفية ، وهى معان مجردة كما نعرف ، أن يجد أصل استعمالها ، أن يتلمس الطريق الذى سلكه الانسان عند ما ترك التجربة الواقعية وشرع بُجَرِدَ ويتفلسف . يجد المدقق مع الأسف أنه قلما يدرك الأصل الحقيقى لمعنى كلمة من الكلمات ، قلما يعثر على جذر المعانى كلها ، بل يتعذر عليه تعيين طريق مفهوم بين الأصل والفروع ، أو حتى الكيفية التى اجتمعت بها الفروع فى جذع واحد . يبدو أن الكلمات تتخذ منطقاً شاذاً ، وأن بعضها لا يتخذ منطقاً على الإطلاق . لنأخذ مثلاً كلمة «طبيعة» (Nature) : شتان بين معنى هذه الكلمة فى عبارة روسو الشهيرة : « لرجع لحالة الطبيعة » ، وبين معانيها عندما نتكلم عن طبيعة الذرة ، عن جمال الطبيعة ، أو عن قوانين الطبيعة .

وان ادعى البعض أن العبرة ليست بالكلمات بل بالمعانى ، وشرع الباحث فى إيجاد معان خالصة عارية ، لما وجد فى الذهن شيئاً منها ، لا لأن الذهن صندوق

فارغ أو ورقة بيضاء كما يقول البعض ، بل لأن المعنى عبارة عن استخدام هذا الفيلسوف أو ذاك للكلمات، ولأن لكل كلمة حياة وتجربة وتاريخاً فلسفياً مرتبطاً بها، وأن المعاني لا تُكتشفُ إلا بتفصيل هذا التاريخ . وقد يكون التفصيل أمراً شاقاً متعباً كما ذكرنا إنما يمكن القيام على الأقل ، بصدد الكلمات الفلسفية بوجه عام، وما شاع في الاستعمال منها بوجه خاص ، باحصاء المعاني الهامة ، ومراعاة ما إذا كانت هذه المعاني متصلة فيما بينها ، وطبيعة هذا الاتصال ، ثم ، ان كانت منفصلة ، التساؤل عما إذا لم يكن هذا الاتصال جزءاً من منطق الغريب .

لنوضح الآن كيف قام حضرة الاستاذ بهذا العمل ، راجعين لبعض أمثلة هامة، وسنشير في نهاية مقالنا الى ما بلغ اليه من نتائج .

يلاحظ الاستاذ بصدد كلمة « صدفة » (Chance) أصلها اللاتيني في كلمتي (cadentia) ، (cadere) وارتباطها اللغوي بالكلمة الإيطالية (Cadenza) . ومعنى هذه الكلمات الأصلي هو السقوط ، وخاصة سقوط زهر النرد ، ثم سقوط أو نزول النواشب . ولا شك أن هذا الأصل يبرر استخدام الكلمة في الفلسفة للدلالة على الظواهر الاتفاقية ، ظواهر يدرسها العلم الفيزيقي وحساب الاحتمالات .

يلاحظ أيضاً الاستاذ بصدد كلمة (Raison) « عقل وسبب » ، اشتقاق الكلمة من الفعل اللاتيني (reor) ، واسم المفعول (ratus) ، أى يحسب ويقوم بعملية حسابية . ولكنه يلاحظ أيضاً أن نفس الكلمة (ratio) تستخدم عند الكتاب اللاتينيين في العصر الكلاسيكي ، للدلالة على الحساب ثم على النظام العقلي ثم على السبب . ولا يستطيع أن يوضح كيف يمكن لكتاب عصر واحد أن يستخدموا نفس الكلمة في معان متباينة ، دون أن يعينوا مبرراً ظاهراً لتعدد هذه المعاني .

لنتنقل مع الأستاذ الآن الى بعض كلمات هامة شاع استعمالها ، وأولها كلمة «الطبيعة» (Nature) التي أشرنا اليها فيما سبق : هذه الكلمة من أقدم المصطلحات الفلسفية ، نجددها عند الفلاسفة الاغريقين كعنوان لأفكارهم الشعرية والفلسفية ، ونجددها أيضا في عنوان مؤلف رائع للشاعر والفيلسوف اللاتيني لوكريس . (Lucretè)

ما معنى أو ما معاني هذه الكلمة بالضبط ؟ للإجابة عن السؤال ، يجدر بنا أن نميز بين طائفتين رئيسيتين : نطلق «الطبيعة» أولا على صورة كائن من الكائنات أو على ماهيته ، ونطلقها ثانيا على الكائنات ككل ، على العالم بأكمله .

لننظر للطائفة الأولى : تعتبر الطبيعة مبدئيا كماهية كائن أو ماهية جنس من الكائنات . ولا يعد كثيرا عن هذا المعنى استخدام ديكرت للكلمة : فالطابع البسيطة عنده ، عبارة عن الكائنات من حيث أنها معقولة ، موضع نظرة بسيطة ساذجة . — وإن خصصنا الكائن وأردنا به الانسان أو الحيوان أصبحت «الطبيعة» دالة على الغرائز ، على ما للانسان من فطرة ، بعكس ما يكتسبه بالتجربة . أما إن نظرنا للانسان كعضو في مجتمع متحضر ، دلت « الطبيعة » على حاله قبل التحضر ، وإن نظرنا له ككائن ديني دلت على حاله قبل الوحي أو الخطيئة ، وإن نظرنا له أخيراً ككائن فردي له استعدادات وميول خاصة تتغير حسب الظروف ، فطبيعته هي طابعه أو ميمته — . لدينا فيما سبق طائفة اولى من معاني «الطبيعة» تظهر فيها متفرعة عن أصل واحد .

ان نظرنا للطائفة الثانية من المعاني وجدنا بعض الصعوبة في تفهم ارتباطها فيما بينهما ، وخاصة في معرفه صلتها بالطائفة الاولى من المعاني : تطلق «الطبيعة» على الكل ، على كل ما في العالم ، على العالم بأكمله ، وخاصة على الكل من حيث يحقق نظاما أو يتبع قوانين ، أو يظهر قيام مبدأ فعال في العالم ، سواء كان المبدأ

عقلا سر بين الكائنات ، أو غاية عياء تشدها هذه . وقد تطلق الطبيعة على . لا يقع نظاما معقولا ، كما تطلق كثيرا على العالم المنظور وخاصة على عالم النباتات . — أما المعاني الرئيسية لهذه الطائفة فتفاوت حسب النظام المقصود أو نوع القوانين المتبعة : يقصد الفيلسوف الألماني كنت « بالطبيعة » قوانين ضرورية . أما باركلي فيريد بها مجموعة القوانين التي وضعها الله للعالم بفعل إرادته ، وقد يكون النظام المقصود خلقيا ، وهنا تعني « الطبيعة » مجموعة القوانين الكامنة في النفس ، التي إن حاد عنها الانسان أنه على ذلك ضميره تأنيبا شديدا .

ما نرى نستخلصه من هذا التوسع الغريب ؟ إن تطور معنى الكلمة يتخذ طريقا واحدا مستقيما ، بل كان معقدا متشعبا ، متجها كأشعة الضوء اتجاهات مختلفة . لا بل إن بعض هذه المعاني تتنافر فيما بينها ، حتى إن استخدام الكلمة في معنى معين ، تعدل استخدامها في المعاني الأخرى دون إطالة شرح وتفسير . ولذلك يقترح الأستاذ ، في نهاية مقاله ، عدم استخدام الكلمة إلا في النادر وعندما يكون الغرض منها واضحا كل الوضوح : فيقصر « الطبيعة » إما على العالم المنظور وخاصة النباتات والأشجار ، أو على العالم من حيث لا يحقق نظاما ظاهرا ، ينصح في الأحوال الأخرى باستخدام غيرها من الكلمات ، كإديه وعريزة ، للطائفة الأولى ، وكعالم وعقل وضرورة وقوانين ، للطائفة الثانية .

غير أن هذه النتيجة السلبية التي يقف عندها الأستاذ في بحر مقاله لا ترضى بعض لفلاسفة ، ممن كان حاضرا مناقشة الكلمة : فيرى لاشليه (Lachelier) ، ومكانته معروفة بين الفلاسفة المعاصرين ، أنه من الواجب على الباحث الفيلسوف أن يتعدى التنوع القائم بين معاني كلمة واحدة ، لأن هذا التنوع ظاهرة نلاحظها في التاريخ ، ولا تخضع حتما لمعيار العقل . وعلى الباحث أن يكشف أيضا عن معنى أصيل متغلغل في جميع الاستعمالات الأخرى . يقول لاشليه : لو دققنا فيما

نفيه ، وجدنا أن «الطبيعة» تدل قبل كل شيء على الوجود ذاته ، من حيث يعين ذاته ويتطور من الداخل رغم التأثيرات الخارجية .

لننظر الآن لكلمة لها أهميتها من نواح أخرى ، هي كلمة «العلّة» (Cause) . نجد الأستاذ يدلي بصدها بملاحظات فنية لم يسمح بها تاريخ كلمة «الطبيعة» . «العلّة» (cause) من اليونانية (aitia) هي في الأصل ، الانسان المسؤول ، أو من يوجه له الاتهام في قضية جنائية معينة . و«العلّة» باللاتينية (causa) ومنها الإيطالية (cosa) ، لها في الأصل معنيان واقعيان على الأقل : القضية بالمعنى المعروف في المحاكم ، ثم الشيء موضوع الحديث — . جلّى أن هذه الأصول أثرت في تطور معنى الكلمة الى حد بعيد : «فالعلّة» اذا اعتبرناها كبداً لفعال تحدث عنه الآثار ، لى أقرب الأشياء الى الارادة الانسانية التي تعمل وتحمل تبعه أعمالها . أما اذا وجهنا النظر الى المعنى العلمى للعلّة ، «فالعلّة» شرط التغير والحدوث ، شرط هو جزء من الظاهرة يتبدى عند حدوثها ، لا قوة خفية خارجة عن الظاهرة . ويرى الفلاسفة للمعاصرون أن العالم لا يميز علّة الظاهرة من الظاهرة ذاتها وبأكملها — . وهذا معنى قول لينتز «ان هناك تطابقاً بين العلة والمعلول» . — فيصبح تطور معنى هذا المصطلح مشابهاً لحركة دوران حول قطبين ، أحدهما ، المعنى الخلقى للعلّة أى الارادة الفعالة ، والآخر المعنى المعتاد للكلمة ، الشيء الذى قصده في الحديث ، وهرض بقاءه في التجربة ، رغم التغير .

ظهر منذ سنوات بحث طريف لانتوان ميبه (Meillet) في كلمة الله وأصلها

الهندي الأوروبي ، يوضح فيه ان الكلمة تعنى فى الأصل الأب والحامى والمدافع . وكان لهذا البحث أثر بعيد فى المناقشة التى دارت بالجمعية الفلسفية حول هذه الكلمة .

يؤدى بنا البحث فى تاريخ الكلمة الى ضرورة التمييز بين طائفتين من المعانى ، احدها نظرية فلسفية والأخرى خلقية اجتماعية . — الأولى تدور حول فكرة تفسير العالم : الله عند اسينوزا هو العالم ذاته ، الوجود معتبرا فى وحدته المطلقة . ثم الله فى الفلسفة المسيحية ، هو خالق السماء والارض . تدخل أيضا فى الطائفة الأولى بعض معانٍ منطقية : الله مبدأ الحقائق ومحلب الاسمى ، هو الحقيقة المثلى المعيارية . — أما معانى الطائفة الثانية فهى تنفوت فى التجريد ، إنما تخص بالاكثير كائن شخصيا فعلا . فلدينا من ناحية فكرة الله التى أشار اليها ميليه فى بحثه السابق : الله هو حامى القبائل ، أب العشيرة الانسانية ، أعظم أبطال المجتمع ، ورأس الكنيسة (وتعنى الكنيسة مجتمعاً من الناس) . الله هو رب أمة خاصة ، شعب مختار من بين الشعوب ، «إله ابراهيم واسحق ويعقوب ، لا إله الفلاسفة والعلماء» كما يقول بسكال . — ولدينا من ناحية أخرى معانٍ عملية أبعد من السابقة عن العالم الواقعى المنظور : فالله فى العقلية الدينية المتحضرة كائن لا متناه له شخصية سامية تتجه اليه آمالنا وصلواتنا ، وهو أيضا ، وخاصة عند الفلاسفة منذ كانت ، عماد القانون الخلقى ومثاله الأعلى .

نجد انفصالا بين الطائفتين ، بل تضالا بين المفكرين الذين يمثلون كلا منهما : هل هناك أى ارتباط فى المعنى بين حامى القبيلة ورأس المجتمع ، وبين مبدأ الحقائق النظرية ومعيارها الأعلى ؟ — يحسن ، قبل أن نحاول التوفيق بين الطرفين ، ملاحظة بعض حدود وسطى : يذكر الاستاذ لالاند ، بعد تعريف اسينوزا الله ، الجملة الشهيرة التى يبدأ بها المسيحيون قانون إيمانهم «أؤمن بالله واحد أب ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض» . نجد إذن فى نص من أهم النصوص ، كلمة الأب

مرتبطة بكلمة الخالق ، أى مبدأ تفسير العالم ، مما يدل على محاولة ضمنية عند المسيحيين للتقريب بين المعنى الأصلي لله والمعنى الفلسفى البحث . والمحاولة ذاتها صريحة عند ممثلى الأفلاطونية الحديثة ، وخاصة عند ابروقلوس حين يعمل على الربط بين ثلاث كلمات تدل على مبدأ العالم : الله هو الواحد والخير والأب .

إلا أن كثير من الفلاسفة المحدثين لا يقررون معنى واحداً عن الله إلا بتوضيح المعانى الأخرى . فمن ناحية نشاهد فى مبدأ الفلسفة الحديثة احتفاء ، يكاد يكون كلياً ، للمعنى الاجتماعى عن الله ، هذا المعنى الذى وجدنا صدى عميقاً له فى الفلسفة المسيحية والفلسفة الأفلاطونية ، ونلاحظ من ناحية أخرى منذ كنت بوجه خاص ، احتفاء المعانى الميتافيزيقية والمنطقية ، وتغلب المعنى الخلقى المجرد . — ولكن أمر غريب : للمعنى الاجتماعى الذى اختفى وقتاً طويلاً يرجع ثم يطفئ على الفلاسفة أنفسهم بقوة شديدة : فعلاوة على رجال المدرسة الاجتماعية الفرنسية ، والله فى نظرهم مرتبط بطبيعة المجتمع وبمصدره ، نجد عند الفلاسفة الألمان من أوائل القرن التاسع عشر ، فكرة شعب يسود الشعوب وجنس بشرى يفضل سائر الأجناس ، هر الشعب الجرمانى . وليس غريباً بعد ذلك أن نجد عند بعض المفكرين السياسيين المعاصرين بألمانيا فكرة عن الله تكاد تكون بدائية .

غير أن هذا التردد الذى نشاهده فى الفلسفة الحديثة بين اتجاهين ، اتجاه خلقى واتجاه اجتماعى بدائى ، يظهر كما لو كان فى أساس هذه الفلسفة ذاتها : عند ديكرت مثلاً ، وسلطة ديكرت فى الفلسفة الحديثة ما زالت قوية ، الله حرية مطلقة ، أقل ما يمكن أن يقال عنها ، أنها تتنافى مع كل طبيعة ، وتنفرد من كل تعقل . — موقف خطير يدل على أن القدماء كانوا أكثر توفيقاً من المحدثين فى إيماد فكرة عن الله تحترم مطالب العقل ، وتوفق بينها وبين رغبات النفس العميقة ، وحاجة المجتمع لأساس روحى متين .

لدينا فيما سبق فكرة وجيزة عن بعض ما دار من المناقشات حول الألفاظ والمعاني الفلسفية، تاريخيها وتطورها وما قام بينها من تنازع وما بلغت إليه من وحدة. وقد دون أو لخص الأستاذ لالاند هذه المناقشات، وارتبط في تحريره النهائي للشروح والتعاريف بنتائج المناقشة.

أنا لنكون مغالين دون شك إن ادعينا أن صاحب القاموس وفق إلى اقتناع الفلاسفة باستخدام الألفاظ والمصطلحات استخداما يمنع قيام أى جدل أو خصام بينهم. أو أنه نجح في تحديد المعاني تحديداً يؤدي إلى صياغة أحكام فلسفية يؤمن عليها الجميع، أو يظهر بصددها على الأقل تماثل مواقفهم وتكملها.

إن كانت هذه غاية بعيدة يرمى إليها الأستاذ، فإنه لم يتوخاها لذاتها في القاموس، ولم يمتن نفسه بالوصول إليها. — أنا نظنه نجح في أمرين على الأقل: الأول أنه جمع لمناقشة المسائل المتعلقة باللغة الفلسفية، كل من تعنيهم أمور الفلسفة في فرنسا وخارج فرنسا أيضاً، بل تقول كل من تعنيها معرفة رأيه في هذه المسائل من بين المفكرين. ولا شك أنها خطوة عظيمة، تلك التي أدت إلى اجتماع العلماء والفلاسفة. ومن بين الأسخريين كثير منهم متباينوا النزعة: نجد جنباً إلى جنب مفكرين أحراراً ورجالاً يناقضون القضايا الفلسفية القديمة، ثم فلاسفة مسيحيين، منهم من يرمى معايير العقل، ومنهم من ينعضها من الأساس: نطالع في القاموس بجانب ملاحظات برانشفيج وراسل وروه (Rauh) وبرهيه، اعتراضات وانتقادات بلونديل ولروا ودلبوس ولاشيليه وجلسون —

ولا عجب في ذلك إن كان الأستاذ واثقاً بأن الفلسفة توطد دعائم الصداقة بين المفكرين، وتدعو للصراحة في القول والصدق والاخلاص. — ولا عجب في ذلك أيضاً، إن كان ما يعرضه حضرة الأستاذ على المجتمعين من تعريف لكلمة أو

ملاحظة أو انتقاد يدعو حضراتهم ، لا الى السكوت او عدم المبالاة ، بل الى التحمس لمسائل الفلسفة ولموافقهم منها . وليس أدل على نجاح الاستاذ في هذه الناحية من ملاحظات لجول لاشيليه ، نلس فيهما ، أكثر مما في كافة الملاحظات ، بعد النظر والعمق والدقة . نوجد لاشيليه ، هذا الرجل العظيم الذى لم ينشر طول حياته إلا بعض صفحات نادرة رائعة ، والذى أوصى قبل وفاته باحراق مخرره فى أوراقه الخاصة ، نراه لا يرض على صديقه صاحب القاموس ، بالملاحظات والمشروح كما سنحت لذلك الفرصة . نجده يعمل رغم تقدمه فى السن على تنقيح هذه قبل أن تطبع نهائيا .

وفق الاستاذ اذن الى تأسيس روابط روحية متينة بين المفكرين ، وليس هذا بالأمر الهين . — ويجب ان نذكر الناحية الأخرى التى وفق فيها : قلنا انه لم يحجم عند تحرير مقالات القاموس وعرضها على أعضاء الجمعية الفلسفية ، بالوصول الى تحديد المعاني تحديدا نهائيا . لم يمت نفسه أبدا بوحدة موضوعية ، لأنها قد تؤدى فى نظره الى شل الحركة الفكرية وتوقفها . ولكن مطالعة كل مقال وما يليه من انتقاد يعمل الاستاذ بعد احصاء معانى الكلمة ، ومطالعة ما يصحب المقال والانتقاد من ملاحظات له ولأعضاء الجمعية ، يحملنا على القول انه وصل الى استخلاص العوامل التى تفرق بين معاني كلمة واحدة ، وتلك التى تؤسس ترابطها واتحادها ، والى الكشف أخيرا عما يعد كلمة من الكلمات (حتى من تلك التى شاع استعمالها ، وعم) الى استخدام فلسفى جديد ، الى ما يعطى هذه الكلمة حياة جديدة ، وما يحقق للفلسفة سيرها وتقدمها .

ولا يمكن ان نغيب على الاستاذ ، كما يفعل البعض الآن ، انه لم يربط دراسته للغة والفلسفة بأحدث آثار الفكر الحى ، وبلغه المؤلفين الجدد ، فهو بالعكس قد بذل ، فى طبعته الخامسة للقاموس ، قصارى جهده ، فتبع هذه الآثار واقتبس أهم

المصطلحات الجديدة ، وشرحها ببارات مستعارة من هؤلاء المفكرين أنفسهم ، ولا يمكن ان نعيب عليه عدم تشجيعه لهذه الحركات وما تحدثه من اضطراب فى تصور القيم العقلية . فلم يكن أى قاموس اداة للاضطراب ووسيلة للهدم او لتقليل الفكر الانسانى .

ويؤمن الاستاذ لالاند ان الفلسفة تقوم على احترام نظم العقل والمحافظة على تراث الماضى ، والعمل على التوفيق بين هذه المحافظة وبين ما يتمتع العقل به من حرية . ولا يعنيه كصاحب قاموس أن يتمشى مع الحركات الثورية الفكرية ، ولن نطالبه بشيء من هذا . إنما نرجو أن يجد أبناء الجيل القادم رجلا مثله يتبع الحركة الفكرية الناشئة ، ويوفق بين نتائجها وبين الثروة العقلية التى اكتسبها الانسان منذ العصور الاغريقية الزاعرة .

نجيب بلدى